

900 | تعليق على معارج القبول للشيخ حافظ الحكم | الشيخ

عبد الرزاق البدر

عبدالرزاق البدر

نعم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين وللمسلمين اجمعين اما بعد يقول الشيخ العلامة حافظ بن احمد الحكمي رحمه الله في كتابه معارج القبول بشرح سلم الوصول الى علم الاصول والكلام في هذا الفصل على النوع الاول وهو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي وهو اثبات بالرفع بدل بعض من قولنا نوعان اي النوع اي اي الاول منهما اثبات ذات الرب جل وعلا فان هذه العوالم العلويات والسفليات لا بد لها من موجد او يتصرف فيها ويدبرها. ومحال ان يوجد ومحال ان توجد بدون موجد. ومحال ان وجد انفسها قال الله تبارك وتعالى في مقام اثبات الربوبية وتوحيد اللوهية ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون ام خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون قال ابن عباس رضي الله عنهما ام خلقوا من غير شيء اي من غير رب ومعناه اخلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز ان يكون لان تألق الخلق بالخالق من ضرورة الائم فلا بد له من خالق فان انكروا الخالق لم يجز ان يوجدوا بلا خالق ام هم الخالقون لانفسهم وذلك في البطلان اشد لان ما لا وجود له كيف يخلق فاذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بان لهم خالقا فليؤمنوا به ام خلقوا السماوات والارض وهذا في البطلان اشد واشد. فان المسبوق بالعدم يستحيل ان يوجد بنفسه فضلا عن ان يكون موجدا لغيره. وهذا انكار عليهم في شركهم بالله عز وجل وهم يعلمون انه الخالق لا شريك له بل لا يوقنون اي ولكن عدم ايقانهم هو الذي يحملهم على ذلك. نعم بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى اله واصحابه اجمعين اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما واصح لنا شأننا كله ولا تكلنا الى انفسنا طرفة عين اما بعد في هذا الفصل او في هذا الموضوع يبين الشيخ رحمة الله عليه ما يتعلق التوحيد التوحيد العلمي وقد عرفنا ان التوحيد العلم ويقال عنه التوحيد المعرفة والاثبات يتناول توحيد الربوبية وتوحيد الاسماء والصفات بالاعتراف بربوبية الله وتفرد سبحانه وتعالى بالخلق والايجاد والامداد والمعونة والتوفيق والتصرف والتدبير لا شريك له سبحانه وتعالى وان تثبت له اسماؤه الحسنی وصفاته العلى الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى فهذا يقال عنه اه التوحيد العلم لان القدر المطلوب من العبد في هذا النوع من التوحيد هو العلم والمعرفة والاثبات لان القدر المطلوب من العبد في هذا التوحيد هو العلم والمعرفة والاثبات ولهذا يقال التوحيد العلمي ويقال له توحيد المعرفة والاثبات وقد اورد اه رحمه الله تعالى قول الله عز وجل ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون ام خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون قال رحمه الله تعالى قال الله تعالى في مقام اثبات الربوبية هو توحيد اللوهية في مقام الربوبية واثبات الربوبية وتوحيد اللوهية لانه كما هو معلوم ان توحيد الربوبية بوابة توحيد اللوهية بمعنى ان الاقرار بربوبية الله والمعرفة به وبها تدبيره وتفرد بالتصرف والخلق والايجاد لازمه ان يفرد بالعبادة كما قال الله وانا ربكم فاعبدون فمقتضى تفرد سبحانه وتعالى بالربوبية لا شريك له ان يفرد جل وعلا بالعبادة فكما انه تفرد بالخلق والرزق والايجاد فالواجب ان يفرد سبحانه وتعالى بالعبادة فلا يجعل معه الشريك ولا تتخذ النداد وهذه الاية فيها ابطال الشرك بالحجة الدامغة والبرهان البين قال سبحانه وتعالى ام خلقوا من غير شيء جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما كما نقل المصنف انه قال من غير رب خلقوا من غير شيء اي قال من غير رب من غير شيء اي من غير ان يوجد رب خالق مدبر ام خلقوا من غير شيء اي من غير ان يخلقهم خالق رب مدبر قال ومعناه اخلقوا من غير شيء خلقهم؟ فوجدوا بلا خالق قوله ومعناه هذا من كلام البغوي رحمه الله تعالى نقلنا عن تفسيره قال ومعناها اخلقوا من غير شيء معناه اي معنى قول ابن عباس من غير رب

اي من غير قائل خلقهم فاوجدتهم اي وجدوا بغير خلق بغير خالق وذلك مما لا يجوز ان يكون لان الصنعة تدل على وجود الصانع والخطوة تدل على وجود الماشي والحركة تدل على وجود متحرك والخلق يدل على وجود خالق هذا امر يعرف ببدائه العقول يعرف ببدائه العقول ولهذا لما قيل اعرابي بم عرفت ربك قال السماء ذات امواج سماء اه بحار ذات امواج وارض ذات فجاج الا يدل ذلك على اللطيف الخبير يعني هذه الايات العظيمة هي دلالة وبرهان على وجود خالق لها ومبدع سبحانه وتعالى قال ام خلقوا من غير شيء امهم الخالقون اي لانفسهم هذا في الاستحالة اشد من الاول ام هم الخالقون لانفسهم قال وذلك في البطلان اشد من الاول لان ما لا وجود له كيف يخلق ام خلقوا السماوات والارض وهذا اشد واشد في اقامة الحجة عليهم بالبرهان البين بل لا يوقنون قال ولكن عدم ايقانهم هو الذي يحملهم على ذلك اليقين اليقين هو كمال العلم وثبوته في النفس بحيث لا يبقى تردد ولا يبقى ارتيان اذا وجد التردد والارتياب في النفس انت فاليقين ولهذا الايمان لابد فيه من يقين واليقين هو انتفاء الشك فاليقين هو انتفاء الشك انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فهذا هو اليقين. اليقين هو انتفاء الشك. انتفاء الريب من قالها يقول عليه الصلاة والسلام مستيقنا بها قلبه. والحديث الاخر قال غير شك فيه. هذا هو اليقين. اليقين انتفاء الشرك فاذا وجد التردد والارتياب والشك فاليقين منتفي نعم وعن جبير ابن مطعم رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الاية ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون؟ ام خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون عندهم خزائن ربك ام هم المسيطرون كاد قلبي ان يطير. اخرج في الصحيحين هذا الحديث وهو في الصحيحين حديث جبير اه ابن مطعم اه رضي الله عنه في سماعه فهذه الاية والنبي عليه الصلاة والسلام يقرأها في صلاة الفجر فوقعت موقعا عظيما من قلبه وكان لها اثر عظيم وهذه هذا الحديث هو شاهد من شواهد كثيرة على عظم تأثير القرآن على القلوب لمن وفقه الله سبحانه وتعالى لحسن التأمل لكتابه. جل في علاه فهذه القصة هي من شواهد كثيرة جدا على ان من وفقه الله سبحانه وتعالى آآ للتأمل في معاني القرآن وايه ان هذا من اعظم ابواب هداية القلب من اعظم ابواب هداية القلب ان يتأمل في الايات ويتدبر في المعاني ليحصل هدايات القرآن فان هداية القلوب انما هو كلام علام الغيوب سبحانه وتعالى. جل في علاه كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب فسمع هذه الاية انظر ماذا عبر من قوة اثر الاية على قلبه قال رضي الله عنه كاد قلبي يطير كاد قلبي يطير اي من عظم وقع هذه الاية وهذه البراهين القامعة والحجج الساطعة في من براهين التوحيد توحيد الله سبحانه وتعالى وكانوا قبل ذلك متعلقين الاحجار والاشجار الانداد التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا فضلا عن ان تملك شيئا من ذلك لغيرها فلما سمع هذه الاية كان لها الوقع العظيم على قلبه يقول كاد قلبي يطير. نعم وكثيرا ما يرشد الله تبارك وتعالى عباده الى الاستدلال على معرفته باياته الظاهرة من المخلوقات العلوية والسفلية كما قال تعالى وفي الارض آيات للموقنين اي فيها من الايات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والحيوانات والجمادات والقوى وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من اعضائهم في المحل في وضع كل عضو من اعضائهم في هل للذي هو محتاج اليه فيه؟ ولهذا قال عز وجل وفي انفسكم افلا تبصرون قال قتادة وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم الا افلا تبصرون؟ اي الايات البينات الدالة على ان الله سبحانه وتعالى وحده الحق المبين لا شريك له انه سبحانه وتعالى وحده الحق المبين لا شريك له مثلها قوله سبحانه وتعالى سترهم آياتنا في انفسهم. في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد فهذه آيات اودعها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون دالة عليه سبحانه وتعالى دالة على كمال ابداعه وعظيم تفرده وانه سبحانه وتعالى لا ند له ولا شيء وكما انها آيات على تفرده بالربوبية فهي في الوقت نفسه آيات على وجوب توحيده وافراده بالعبادة مثل ما قال الله سبحانه وتعالى يا ايها الناس فاعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون اي تعلمون انه لا خالق لكم غير الله

فالعلم بانه لا خالق مدبر متصرف في هذا الكون غير الله هذا ابين ما يكون في البرهان على وجوب افراده سبحانه وتعالى بالعبادة. نعم قال قتادة من تفكر في خلق نفسه علم انه انما لينت مفاصله للعبادة وكذا ما في ابتداء الانسان من الايات العظيمة اذ كانت نطفة ثم القة ثم مضغة ثم عظاما الى ان نفخ فيه الروح كلام قتادة عظيم جدا يعني هو مستفاد من قوله وفي انفسكم افلا تبصرون يعني هذه الايات التي اودعها الله سبحانه وتعالى في الانسان نفسه في اعضائه واجزاء بدنه الظاهرة والخفية هذه ايات عظيمة جدا ولهذا العلم الحديث والاجهزة الحديثة اوقفت الناس على اشياء في آآ في داخل الانسان واعمالها العظيمة ما يدل على عظمة الخالق جل في علاه حتى ان كثيرا من اطباء الموفقين من غير المسلمين كانت هذه سبب اسلامهم وقوفهم على هذه الايات سبب اسلامهم ودخولهم في الدين في الانسان ايات تدل على ان هذه الاعراض التي اودعها الله سبحانه وتعالى انما اوجدها فيه ولين هذه المفاصل واوجد هذه الاعضاء لان يفرد بالعبادة يحسب الانسان اه ان يترك سدى اي لا يؤمر ولا ينهى؟ يحسب انه خلق على هذه الهيئة وهذا القوام وهذا الجمال وهذه الايات الباهرة التي اودعها الله ليبقى هملا فهذه من الايات الدالة على اه تفرد الله بالخلق ووجوب افراده سبحانه وتعالى بالعبادة. قال من تفكر في خلق نفسه علم انه انما لينت مفاصله للعبادة انظر التنبيه الجميل في قوله رحمه الله من تفكر في خلق نفسه هذا باب يغفل عنه كثير من الناس ان يتفكر في هذه الاعضاء وهذه المفاصل هذه الاجهزة العظيمة التي في البدن يتفكر في عظيم خلق الله سبحانه وتعالى له على هذه الصفة يتفكر في حواسه وموضعها والجمال الذي جعله الله سبحانه وتعالى في هذا الانسان وميزه به ثم بعد هذا التفكير يبني عليه اقامة نفسه على طاعة من اوجد اقامة نفسه على طاعة من اوجد سبحانه وتعالى. نعم وقال تعالى والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون. والارض فرشناها فنعم الماهدون. ومن كل لشيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوي والسفلي والسماء بنيناها اي جعلناها سقفا محفوظا رفيعا. بايدي اي بقوة. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة بايد بايد واذا سكن بايد بايد اي بقوة. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد وانا لموسعون. قال ابن عباس رضي الله عنهما لقادرون وانه ايضا لموسعون الرزق على خلقنا وقيل ذو سعة. وقال ابن كثير اي قد وسعنا ارجاءها ورفعناها بغير امد حتى تقلت كما هي قوله جل في علاه جل في علاه والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون. هذه ايات على عظمة الله ووجوب اللجوء اليه وحده ولهذا بعدها قال ففروا الى الله ثم ايضا قال بعده ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فهذه الايات السماء وخلق الله لها بهذا الجمال وهذه السعة وانا لموسعون دليل على قوة الخالق وعظمته ولهذا قال بايد قال ابن عباس آآ قال المصنف رحمه الله بايد اي بقوة بايد اي بقوة وهذا ليس من التأويل لان ايد ليست جمع يد كما في قوله مما عملت ايدينا وانا ايد مصدر للفعل ادى يايد ومعناه القوة ايديتك بروح القدس اي قويتك داود ذا الايد اي القوة هذا معناها في اه في اللغة فايد ليست جمع يد وانا هي مصدر. نعم والارض فرشناها اي جعلناها فراشا للمخلوقات فنعم الماهدون الباسطون نحن قال ابن عباس نعم ما وطأت العبادي ومن كل شيء خلقنا زوجين صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والارض والشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والسهل والجبل والشتاء والصيف والجن والانس والذكر والانثى والنور والظلمة والايمان والسعادة والشقاوة والجنة والنار والحق والباطل والحلو والمر والدينا والاخرة والموت والحياة والنام والمتحرك والساكن والحر والبرد وغير ذلك. الله اكبر هذا كله من معنى قول ربنا جل في علاه فهو من كل شيء خلقنا زوجين من كل شيء خلقنا زوجين نعم لعلكم تذكرون اي لتعلموا ان الخالق واحد فرد لا شريك له. انتهى ابن كثير والبغوي. اذا هذا الخلق الذي ذكر هنا في هذه الاية من كل شيء خلقنا زوجين هذا الخلق العظيم من كل شيء زوجين مدعاة للتفكير تفكر في عظمة من خلق هذه الاشياء سبحانه وتعالى من كل شيء زوجين مثل ما جاء في الشرح لماذا الحكمة من ذلك؟ قال لعلكم تذكرون اي تذكرون عظمة الخالق سبحانه وتعالى وكمال ابداعه وصنعه وايجاده ففتفردوه بما هو اهله من ذل وخضوع عبادة نعم وقال تعالى ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون قال ابو الضحى لما نزلت والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم. قال المشركون ان كان هكذا فليأتنا بآية. فانزل الله عز وجل ان في خلق السماوات والارض تلك في ارتفاعها

ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلکها وهذه الارض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع واختلاف الليل والنهار هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الاخر ويعقبه ولا يتأخر عنه لحظة كما

قال تعالى لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون وتارة طول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتأوظان كما قال تعالى يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل اي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا. والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس اي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب الى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما

اهل ذلك الاقليم ونقل هذا الى هؤلاء وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها كما قال تعالى واية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا واخرجنا منها حبا فمنه يأكل الى قوله ومما لا يعلمون. وبث فيها من كل دابة على اختلاف اشكالها وانواعها ومنافعها وصغرها وكبرها وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك كما قال تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين وتصريف الرياح فتارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب وهي الريح وتارة تأتي بمبشرات بين يدي وتارة تسوقها وتارة تجمعها وتارة تفرقه وتارة تصرفه ثم تارة تأتي من الشمال وهي الشام

وتارة تأتي من ناحية اليمن وتارة صبا وهي الشرقية وتارة دبور وهي الغربية وغير ذلك والله اعلم والسحاب المسخر بين السماء والارض اي سائر بين السماء والارض مسخر الى ما يشاء الله من الاراضي والاماكن كما يصرفه تعالى لايات لقوم يعقلون اي في هذه الاشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى لقوم يعقلون فيعلمون ان لهذه الاشياء خالقا وصانعا غنيا بذاته وكل ما سواه فقير

اليه قائم بذاته وكل ما سواه عاجز لا قدرة له الا بما اقدره متصف بجميع صفات الكمال وكل ما سواه فلازمه النقص وليس الكمال المطلق الاله

والله تبارك وتعالى وقال يعني اه هذه الاية هي من ايات كثيرة جدا تساق فيها البراهين على تفرد تفرد الله سبحانه وتعالى بالربوبية بذكر هذه المخلوقات العظيمة الدالة على كمال من خلقها

وعظمة من اوجدها وابدعها جل في علاه فيأتي في القرآن في مواضع كثيرة جدا تذكر هذه البراهين على ربوبية الله شاهدا نعم ودليلا على وجوب افراده بالعبادة ولهذا في الاية التي قبلها كما ذكر رحمه الله قال الله جل وعلا والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم

ثم بعد ذكرت البراهين مثلها تماما الاية التي تقدم ذكره في اول السورة يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ثم ذكرت البراهين الذي آآ جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج بي من التمرات رزقا لكم هذي مثلها. وفي القرآن لهذا نظائر

كثيرة جدا ثم تأمل مع هذه البراهين العظيمة على تفرد الله سبحانه وتعالى تأمل في حال المشرك والعباد بالله مع هذه البراهين البينة على وجوب على تفرد الله بالخلق ووجوب افراده بالعبادة فان

المشركين مع قيام هذه البراهين ووضوحها جعلوا مع الله الانداد واتخذوا الشركاء في حال بئيسة في سفه العقول وخستها ونقصها ورداءتها ولهذا في الاية التي تلي هذه الاية ماذا قال الله عز وجل

ومن الناس ومن الناس يعني مع هذه البراهين البينة على عظمة الخالق جل في علاه وكمال ابداعه وتفرده مع ذلك ومن الناس من يتخذ من دون الله الهى اندادا يحبونهم كما يحبونهم كحب الله. والذين امنوا اشد حبا لله انظر يحبونهم كحب الله مع هذه البراهين العظيمة تجد فالناس وهم اهل الشرك والكفر والتنديد يتخذ حجرا او شجرة او غير ذلك فيحبه ويقدم له القرابين الحب الذي لله والقربى التي لله سبحانه وتعالى ويجعل له ندا

ولا سفه في العقول اشنع من هذا السفه ان يجعل حجر او شيء من التراب ندا وشريكا للرب العظيم والخالق الجليل المتفرد سبحانه وتعالى بالخلق والايجاد والابداع فاذا هذه الايات

التي ذكرت في هذه الاية وهي اية جامعة عظيمة في ذكر براهين اه التوحيد كلها سيقنت مساق اثبات وجوب افراد الله بالعبادة كما قال في الاية التي تسبقها والهكم اله واحد

نعم وقال تبارك وتعالى ومن اياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون. ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون

ومن اياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لايات للعالمين ومن اياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ان في ذلك لايات لقوم يسمعون. ومن ايات يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك

لقوم يعقلون ومن آياته ان تقوم السماء والارض بامرہ ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون؟ نعم اه يؤجل هذا الى لقاء
الرد نسأل الله عز وجل ان ينفعنا بما علمنا وان يزيدنا هدى وصلاحا وتوفيقا انه سميع
قريب مجيب. اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا
مصائب الدنيا. اللهم متعنا باسماعنا وابصارنا وقوتنا ما حيينتنا واجعله الوارث منا
واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا. ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا اكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط
علينا من لا يرحمنا سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك اللهم صلي وسلم على عبدك
نبينا محمد واله وصحبه